نزار قباني

كل عام وأنت حبيبتي

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢٩٥٥

رقم الإيداع: ١٧٠٨٧ / ٢٠١١

حب استثنائي .. لامرأة استثنائية

- ١ -

أكثرُ ما يعذبني في حبِّك..
أنني لا أستطيعُ أن أحبَكِ أكثرْ..
وأكثر ما يضايقني في حواسِي الخمسْ..
أنها بقيت خمساً .. لا أكثرْ..
إن امرأةً استثنائيةً مثلك
تحتاج إلى أحاسيسِ استثنائيةْ..
وأشواق استثنائيةْ..
ودموع استثنائيةْ..
وديانة رابعةْ..
لها تعاليمُها، وطقوسُها، وجنتها، ونارها
إن امرأةً استثنائيةً مثلك..
تحتاجُ إلى كتبٍ تُكتبُ لها وحدَها..
وحزنٍ خاص بها وحدها..

وموتٍ بملايين الغرفْ..
تسكن فيه وحدَها..
لكنني وا أسفاه..
لا أستطيعُ أن أعجنَ الثواني
على شكل خواتمِ أضعها في أصابعك
فالسَّنةُ محكومةٌ بشهورها
والشهور محكومةٌ بأسابيعها
والأسابيعَ محكومة بأيامها
وأيامي بتعاقبِ الليلِ والنهارْ
في عينيكِ البنفسجيتين..

- ٢ -

أكثر ما يعذبني في اللغةِ .. لأنها لا تكفيك
وأكثر ما يضايقني في الكتابةِ أنها لا تكتبُك..
أنت امرأةٌ صعبة..
أنت امرأةٌ لا تُكتب..

كلماتي تلهثَ كالخيولِ على مرتفعاتك..
ومفرداتي لا تكفي لاجتيازِ مسافاتِك الضوئية..
معك لا توجدُ مشكلة...
إن مشكلتي هي مع الأبجديةْ..
مع ثمانٍ وعشرين حرفاً، لا تكفيني لتغطيةِ بوصةً
واحدةً من مساحاتِ أنوثتِك...
ولا تكفيني لإقامةِ صلاةِ شكرٍ واحدة لوجهِك الجميل..
إن ما يحزنني في علاقتي معك..
أنك امرأةٌ متعددة..
واللغةُ واحدة..
فماذا تقترحينَ أن أفعلْ ؟
كي أتصالحَ مع لغتي..
وأزيلَ هذه الغربة..
بينَ الخزفِ، وبين الأصابعْ
بين سطوحِك المصقولةْ..

وعرباتي المدفونةِ في الثلجْ..
بين محيطِ خصرِك..
وطموحِ مراكبي..
لاكتشافِ كروية الأرض..

- ٣ -

ربما كنتِ راضية عني..
لأنني جعلتُك كالأميراتِ في كتبِ الأطفال
ورسمتك كالملائكةِ على سقوفِ الكنائس..
ولكني لست راضياً عن نفسي..
فقد كان بإمكاني أن أرسمَك بطريقةٍ أفضل
ولكن الوقتَ فاجأني
وأنا معلقٌ بين النحاسِ .. وبين الحليبْ..
بين النعاسِ .. وبينَ البحر..
بين أظافرِ الشهوةِ .. ولحم المرايا..
بين الخطوطِ المنحنيةِ .. والخطوطِ المستقيمة

ربما كنتِ قانعة ، مثلَ كل النساء ،
بأية قصيدة حبٍّ تقال عنك..
أما أنا فغير قانعٍ بقناعاتك..
فهناك مئاتٌ من الكلماتِ تطلب مقابلتي..
ولا أقابلُها..
وهناك مئاتٌ من القصائد..
تجلسَ ساعاتٍ في غرفةِ الانتظار..
فأعتذرُ لها...
إنني لا أبحثُ عن قصيدةٍ ما..
لامرأةٍ ما..
ولكنني أبحثُ عن - قصيدتَك - أنت...

- ٤ -

إنني عاتبٌ على جسدي..
لأنه لم يستطعْ ارتداءَك بشكل أفضل..
وعاتبٌ على مساماتِ جلدي..

لأنها لم تستطعْ ارتداَءك بشكلٍ أفضل..
وعاتبٌ على فمي...
لأنه لم يلتقطْ حباتَ اللؤلؤ المتناثرة على امتدادِ شواطئك بشكلٍ أفضل..
وعاتبٌ على خيالي..
لأنه لم يتخيلْ كيف يمكن أن تتفجر البروق، وأقواس قزحْ..
من نهديْن لم يحتفلا بعيد ميلادِهما الثامنَ عشرْ...
بصورةٍ رسمية..
ولكن.. ماذا ينفعُ العتبُ الآنْ..
بعد أن أصبحتْ علاقتُنا كبرتقالةٍ شاحبة،
سقطتْ في البحر..
لقد كان جسدُك مليئاً باحتمالاتِ المطرْ..
وكان ميزانُ الزلازلْ
تحت سرتِك المستديرةِ كفمِ طفل..

يتنبأ باهتزازِ الأرض..

ويعطي علامات يوم القيامة..

ولكنني لم أكن ذكياً بما فيه الكفاية..

لألتقط إشاراتِك..

ولم أكن مثقفاً بما فيه الكفاية..

لأقرأ أفكارَ الموجِ والزَّبدْ..

وأسمعَ إيقاعَ دورتِك الدموية..

– ٥ –

أكثر ما يعذبني في تاريخي معكِ..

أنني عاملتُك على طريقةِ بَيْدبا الفيلسوفْ..

ولم أعاملْك على طريقةِ رامبو .. وزوربا..

وفان كوخ .. وديكِ الجن .. وسائر المجانين

عاملتك كأستاذٍ جامعي..

يخاف أن يحبَّ طالبتَه الجميلة..

حتى لا يخسرَ شرفَه الأكاديمي..

لهذا أشعرُ برغبةٍ طاغيةٍ في الاعتذارِ إليك..
عن جميعِ أشعارِ التصوف التي أسمعتُك إياها..
يومَ كنتِ تأتين إليَّ..
مليئةً كالسنبلة..
وطازجةً كالسمكةِ الخارجةِ من البحْر..

– ٦ –

أعتذرُ إليك..
بالنيابةِ عن ابن الفارض، وجلالِ الدين الرومي، ومحيي
الدين بن عربي..
عن كلِّ التنظيراتْ.. والتهويماتْ.. والرموز.. والأقنعةِ
التي كنت أصنعها على وجهي، في غرفةِ الحب..
يوم كان المطلوبُ مني..
أن أكونَ قاطعاً كالشفرة
وهجوميًّا كفهدٍ إفريقي..
أشعرُ برغبةٍ في الاعتذار إليك..

عن غيابي الذي لا مثيلَ له..
وجبني الذي لا مثيل له..
وعن كلِّ الحكم المأثورة..
التي كنتْ أحفظَها عن ظهرِ قلب..
وتلوتَها على نهديْك الصغيرين..
فبكيا كطفلينِ معاقبين .. وناما دونَ عشاء..

- ٧ -

أعترفُ لك يا سيدتي..
أنك كنتِ امرأةً استثنائية
وأن غيابي كانَ استثنائيًا..
فاسمحي لي أن أتلو أمامَك فعلَ الندامة
عن كلِّ مواقفِ الحكمةِ التي صدرت عني..
فقد تأكدَ لي..
بعدما خسرتُ السباق..
وخسرتُ نقودي..

وخيولي..
أن الحكمةَ هي أسوأُ طبقٍ نقدمه..
لامرأةٍ نحبُّها..

***

في الحبُ البحري...

- ١ -

مواقفي منك ، كموقفِ البحرْ..
وذاكرتي مائيةٌ كذاكرتِه..
لا هو يعرفُ أسماءَ مرافئه..
ولا أنا أتذكرُ أسماءَ زائراتي
كلُّ سمكةٍ تدخلُ إلى مياهي الإقليمية ، تذوبْ..
كل امرأةٍ تستحمُّ بدمي ، تذوبْ..
كلُّ نهدٍ يسقطُ كالليرة الذهبيةْ..
على رمالِ جسدي .. يذوبْ..
فلتكن لك حكمةُ السفنِ الفينيقية..
وواقعيةُ المرافئ التي لا تتزوجُ أحدا..

- ٢ -

كلما شمَّ البحرُ رائحةَ جسمِك الحليبي
صهلَ كحصانٍ أزرق

وشاركتُه الصهيلْ..
هكذا خلقني الله..
رجلاً على صورةِ بحر
بحراً على صورةِ رجلْ
فلا تناقضيني بمنطقٍ زارعي العنب والحنطة..
ودكاترةِ الطبِّ النفسي..
بل ناقشيني بمنطقِ البحر
حيث الأزرقُ يُلغي الأزرق
والأشرعةُ تلغي الأفق..
والقبلةُ تلغي الشفهْ..
والقصيدةُ تلغي ورقةَ الكتابهْ..

- ٣ -

إحساسي بك متناقضٌ ، كإحساسِ البحر
ففي النهارِ ، أغمرك بمياهِ حناني
وأغطيك بالغيم الأبيض ، وأجنحة الحمائم

وفي الليلِ...
أجتاحُك كقبيلةٍ من البرابرهْ...
أستطيع ، أيتها المرأةُ ، أن أكونَ بحراً محايداً..
ولا تستطيعين أن تكوني سفينةً من ورق..
لا أنت أنديرا غاندي
ولا أنا مقتنع بجدوى الحيادِ الإيجابي
ففي الحبِّ .. لا توجدُ مصالحاتٌ نهائيهْ..
بينَ الطوفان ، وبينَ المدن المفتوحة..
بين الصواعقِ ، ورؤوس الشجر
بين الطعنةِ ، وبينَ الجرح
بين أصابعي ، وبين شَعْرِكِ
بين قصائِد الحبِّ .. وسيوفِ قريش
بين ليبرالية نهديْك..
وتحالفِ أحزابِ اليمين..!!

- ٤ -

أيتها الخارجةُ من خرائطِ العطش والغبار..
تخلصي من عاداتِك البرّيه..
فالعواطفُ البريّة تعبّر عن نفسِها..
بإيقاعٍ واحد .. ووتيرةٍ واحدة..
أما الحبُّ في البحر .. فمختلفٌ .. مختلف .. مختلف..
فهو غيرُ خاضعٍ لجاذبية الأرض..
وغيرُ ملتزمٍ بالفصول الزراعية..
وغيرَ ملتزمٍ بقواعد الحبِّ العربي
حيثُ أجسادِ الرجالِ تنفجر من التخمة..
ونهودُ النساء تتثاءبُ من البطالة..

- ٥ -

ادخلي بحري كسيفٍ من النحاس المصقول
ولا تقرأي نشرات الطقْس

ونبوءاتِ مصلحةِ الأرصاد الجوية
فهي لا تعرف شيئاً عن مزاجِ البحر
ولا تعرف شيئاً عن مزاجِ سمكِ القرش
ولا تعرف شيئاً عن مزاجي..
لا أريدُ أن أشتغلَ حارساً لجواهر التاج
إن نهديْك لا يدخلان في حدودِ مسؤولياتي
فأنا لا أستطيعُ أن أضمنَ مستقبلَهما..
كما لا يستطيع البرقُ أن يضمنَ مستقبلَ غابة..

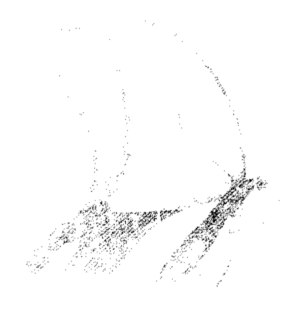
- ٦ -

لماذا تبحثينَ عن الثبات ؟
حين يكون بوسعِنا أن نحتفظ بعلاقاتنا البحرية
تلك التي تتراوحُ بين المدِّ .. والجزرْ
بين التراجعِ والاقتحام
بين الحنانِ الشاملِ ، والدمارِ الشامل...
لماذا تبحثين عن الثبات ؟

فالسمكةَ أرقى من الشجرة..
والسنجابَ .. أهمُّ من الغصن..
والسحابةَ.. أهمُّ من نيويورك..

- ٧ -

أريدك أن تتكلمي لغةَ البحر..
أريدك أن تلعبي معه..
وتتقلبي على الرملِ معه..
وتمارسي الحبَّ معه..
فالبحرُ هو سيدَ التعددِ .. والإخصابِ .. والتحولات..
وأنوثتُك هي امتدادٌ طبيعي له..
نامي مع البحرِ .. يا سيدتي..
فليس من مصلحتِك أن تكوني من فصيلةِ الشجر..
ولا من مصلحتي أن أحولَك إلى جريدةٍ مقروءة
أو إلى ربطةِ عُنقٍ معلقة في خزانتي
منذ أن كنت طالباً في الجامعة..



ليس من مصلحتِك أن تتزوجيني..
ولا من مصلحتي أن أكونَ حاجباً
على باب المحكمة الشرعية
أتقاضى الرشواتِ من الداخلين
وأتقاضى اللعناتِ من الخارجين..

- ٨ -

أنا بحركُ يا سيدتي..
فلا تسأليني عن تفاصيلِ الرحلة..
ووقتِ الإقلاعِ والوصول..
كل ما مطلوبٌ منك..
أن تنسي غرائزَك البرية..
وتطيعي قوانينَ البحر..
وتخترقيني .. كسمكةٍ مجنونة..
تشطرُ السفينةَ إلى نصفينْ..
والأفقَ إلى نصفينْ..

وحياتي إلى نصفينْ..

***

أقرأُ جسدَك.. وأتثقف

- ١ -

يومَ توقَّف الحوارُ بين نهديك المغتسلينِ بالماء..
وبين القبائلِ المتقاتلة على الماء..
بدأت عصورُ الانحطاط..
أعلنت الغيومُ الإضرابُ عن المطر
لمدة خمسمئة سنهْ..
وأعلنت العصافيرُ الإضرابَ عن الطيران
وامتنعت السنابلُ عن إنجابِ الأولاد
وصار شكلَ القمرِ كشكلِ زجاجة النفط..

- ٢ -

يوم طردوني من القبيلهْ..

لأني تركت قصيدةً على بابِ خيمتك..
وتركتُ لك معها وردهْ..
بدأت عصورُ الانحطاط..
إن عصورَ الانحطاط ليست الجهلَ بمبادئ النحو والصرف..
ولكنها الجهلُ بمبادئ الأنوثة..
وشطبُ أسماءِ جميعِ النساء من ذاكرة الوطن..

- ٣ -

آه يا حبيبتي..
ما هو هذا الوطن الذي يتعاملُ مع الحب..
كشرطيٍّ سير ؟..
فيعتبر الوردةَ مؤامرةً على النظام..
ويعتبر هذا الوطنَ المرسوم على شكلِ جرادة صفراء..
تزحف على بطنِها من المحيطِ إلى الخليج..
من الخليجِ إلى المحيط..

والذي يتكلمَ في النهارِ كقديس..
ويدوخُ في الليل على سرَّةِ امرأهْ..

– ٤ –

ما هو هذا الوطن ؟
الذي ألغى الحبَّ من مناهجه المدرسيهْ..
وألغى فنَّ الشعرْ..
وعيون النساءْ..
ما هو هذا الوطنْ ؟
الذي يمارسُ العدوانَ على كل غمامة ماطرة
ويفتحُ لكلِّ نهد ملفاً سرياً..
وينظم مع كل وردةٍ محضرَ تحقيق.!!

– ٥ –

يا حبيبتي..
ماذا نفعلُ في هذا الوطن ؟
الذي يخافُ أن يرى جسدَه في المرآة..

حتى لا يشتهيه..
ويخافُ أن يسمعَ صوتَ امرأة في التلفون..
حتى لا يُنقَضَ وضوءُهُ..
ماذا نفعلُ في هذا الوطن ؟
الذي يعرفُ كلَّ شيء عن ثورة أكتوبر..
وثورةَ الزنج..
وثورةَ القرامطة..
ويتصرف مع النساءِ كأنه شيخُ طريقة..
ماذا نفعلُ في هذا الوطن ؟
بين مؤلفاتِ الإمام الشافعي .. ومؤلفات لينين..
بين المادية الجدليةِ .. وصور (البرونو..)
بين كتبِ التفسير .. ومجلة (البلاي بوي..)
بين فرقة (المعتزلة) .. وفرقة (البيتلز...)
بينَ رابعةِ العدوية .. وبين (ايمانويل..)

- ٦ -

أيتها المدهشةُ كألعاب الأطفال

انني أعتبر نفسي متحضراً..

لأني أحبُّك..

وأعتبرُ قصائدي تاريخية .. لأنها عاصرتك..

كل زمنٍ قبل عينيك هو احتمال..

كل زمنٍ بعدَهما هو شظايا..

فلا تسأليني لماذا أنا معك..

إنني أريد أن أخرجَ من تخلفي..

وأدخلُ في زمن الماء..

أريد أن أهربَ من جمهوريةِ العطش..

وأدخلَ جمهوريةَ المانوليا..

أريدُ أن أخرجَ من بداوتي..

وأجلسَ تحتَ الشجر..

وأغتسلَ بماء الينابيع



وأتعلمَ أسماءَ الأزهار..
أريد أن تعلميني القراءةَ والكتابة
فالكتابةُ على جسدِك أولُ المعرفة
والدخولُ إليه دخول إلى الحضارة..
إن جسدَك ليس ضد الثقافة..
ولكنه الثقافة..
ومن لا يقرأ دفاترَ جسدك
يبقى طول حياته .. أميًّا...

***

كل عام وأنت حبيبتي

- ١ -

كلَّ عامٍ وأنتِ حبيبتي..
أقولُها لكِ،
عندما تدقُّ ا لسّاعةُ منتصفَ اللّيْل
وتغرقُ السّنةُ الماضيةُ في مياهِ أحزاني
كسفينةٍ مصنوعةٍ من الورقْ..
أقولُها لكِ على طريقتي..
متجاوزاً كلَّ الطقوسِ الاحتفاليهْ
التي يمارسُها العالمُ منذ ١٩٧٥ سنة..
وكاسراً كلَّ تقاليدِ الفرحِ الكاذبْ
التي يتمسّكُ بها الناسُ منذ ١٩٧٥ سنة..
ورافضاً..
كلَّ العباراتِ الكلاسيكيّهْ..
التي يردّدُها ا لرجالُ على مسامعِ النساءْ

منذ ١٩٧٥ سنة..

- ٢ -

كلَّ عامٍ وأنتِ حبيبتي..
أقولها لكِ بكلِّ بساطةْ..
كما يقرأُ طفلٌ صلاتَهُ قبل النومْ
وكما يقفُ عصفورٌ على سنبلةِ قمحْ..
فتزدادُ الأزاهيرُ المشغولةُ على ثوبكِ الأبيض..
زهرةً..
وتزدادُ المراكبُ المنتظرةُ في ميناءِ عينيكِ..
مركباً..
أقولُها لكِ بحرارةٍ ونَزَقْ
كما يضربُ الراقصُ الإسبانيُّ قدمهُ بالأرضْ
فتتشكَّلُ ألوفُ الدوائرْ
حولَ محيطِ الكرةِ الأرضيّهْ

- ٣ -

كلَّ عامٍ وأنتِ حبيبتي
هذهِ هيَ الكلماتُ الأربعْ..
التي سألفُّها بشريطٍ من القصبْ
وأرسلُها إليكِ ليلةَ رأسِ السنهْ
كلُّ البطاقاتِ التي يبيعونَها في المكتباتْ
لا تقولُ ما أريدُه..
وكلُّ الرسومِ التي عليها..
من شموعٍ .. وأجراسٍ .. وأشجارٍ .. وكراتِ ثلجْ..
وأطفالٍ .. وملائكهْ..
لا تُناسبُني..
إنني لا أرتاحُ للبطاقاتِ الجاهزهْ..
ولا للقصائدِ الجاهزهْ..
ولا للتمنّياتِ التي برسمِ التصديرْ
فهي كلُّها مطبوعةٌ في باريس، أو لندن،
أو أمستردام..

ومكتوبةٌ بالفرنسية أو الإنكليزية..
لتصلحَ لكلِّ المناسباتْ
وأنتِ لستِ امرأة المناسباتْ..
بل أنتِ المرأةُ التي أحبُّها ..
أنتِ هذا الوجعُ اليوميُّ ..
الذي لا يقالُ ببطاقاتِ المعايَدهْ..
ولا يقالُ بالحروفِ اللاتينيهْ..
ولا يقالُ بالمراسلهْ..
وإنما يقالُ عندما تدقُّ السّاعةُ منتصفَ الليل ..
وتدخلينَ كالسمكةِ إلى مياهي الدافئه..
وتستحمّينَ هناكْ..
ويسافرُ فمي في غاباتِ شَعركِ الغجريّ
ويستوطنُ هناكْ..

- ٤ -

لأنني أحبُّكِ..

تدخُلُ السّنةُ الجديدةُ علينا ..
دخولَ المُلوكْ..
ولأنني أحبُّكِ..
أحملُ تصريحاً خاصّاً من الله..
بالتجوُّلِ بينَ ملايينِ النجومْ..

- ٥ -

لن نشتري هذا العيدَ شجرةْ
ستكونينَ أنتِ الشجرةْ
وسأعلقُ عليكِ..
أمنياتي .. وصلواتي..
وقناديلَ دموعي..

- ٦ -

كلَّ عامٍ وأنتِ حبيبتي..
أمنيةٌ أخافُ أن أتمنّاها
حتى لا أُتّهَمَ بالطمعِ أو بالغرور

فكرةٌ أخافُ أن أفكّرَ بها..
حتى لا يسرقَها الناسُ منّي..
ويزعموا أنهم أوّلُ من اخترعَ الشِعرْ..

- ٧ -

كلَّ عامٍ وأنتِ حبيبتي..
كلَّ عامٍ وأنا حبيبُك..
أنا أعرفُ أنني أتمنى أكثرَ مما ينبغي..
وأحلمُ أكثرَ من الحدِّ المسموحِ به ..
ولكنْ..
من لهُ الحقُّ أن يحاسبني على أحلامي؟
من يحاسبُ الفقراءَ ؟
إذا حلموا أنهم جلسوا على العرشْ
لمدّةِ خمسِ دقائقْ ؟
من يحاسبُ الصحراءَ إذا توحَّمَتْ على جدولِ ماءْ ؟
هناكَ ثلاثُ حالاتٍ يصبحُ فيها الحلمُ شرعياً:

حالةُ الجنونْ..
وحالةُ الشِّعرْ..
وحالةُ التعرُّفِ على امرأةٍ مدهشةٍ مثلكِ..
وأنا أُعاني - لحسنِ الحظِّ -
منَ الحالاتِ الثلاثْ..

- ٨ -

اتركي عشيرتَكِ..
واتبعيني إلى مغائري الداخليّه
اتركي قبّعةَ الورقْ..
وموسيقى الجيركْ..
والملابسَ التنكريّهْ..
واجلسي معي تحتَ شجرِ البرقْ..
وعباءةِ الشِّعرِ الزرقاء..
سأغطّيكِ بمعطفي من مطرِ بيروتْ
وسأسقيكِ نبيذاً أحمر..

من أقبيةِ الرُّهبانْ..
وسأصنعُ لكِ طبقاً إسبانياً..
من قواقعِ البحرْ..
اتبعيني - يا سيّدتي - إلى شوارعِ الحلمِ الخلفيّةْ..
فلسوفَ أطلعُكِ على قصائدَ لم أقرأْها لأحدْ..
و أفتحُ لكِ حقائبَ دموعي..
التي لم أفتحْها لأحدْ..
ولسوفَ أحبُّكِ..
كما لا أحبَّكِ أحدْ..

- ٩ -

عندما تدقُّ ا لسّاعةُ الثانيةَ عشرةْ
وتفقدُ ا لكرةُ الأرضيّةُ توازنَها
ويبدأُ الراقصونَ يفكّرونَ بأقدامهْم..
سأنسحبُ إلى داخلِ نفسي..
وسأسحبكِ معي..

فأنتِ امرأةٌ لا ترتبطُ بالفرحِ العامْ..
ولا بالزمنِ العام..
ولا بهذا السّيركِ الكبيرِ الذي يمرُّ أمامَنا..
ولا بتلكَ الطبولِ الوثنيّةِ التي تُقرعُ حولنا..
ولا بأقنعةِ الورقِ التي لا يبقى منها في آخرِ اللّيل
سوى رجالٌ من ورقْ..
ونساءٌ من ورقْ..

- ١٠ -

آهٍ .. يا سيّدتي
لو كانَ الأمرُ بيدي..
إذنْ لصنعتُ سنةً لكِ وحدكِ
تفصّلينَ أيّامها كما تريدينْ
وتسندينَ ظهركِ على أسابيعها كما تريدينْ
وتتشمّسيْن..
وتستحمّيْن..

وتركضينَ على رمالِ شهورها..

كما تريدينْ..

آهٍ.. يا سيّدتي..

لو كانَ الأمرُ بيدي..

لأقمتُ عاصمةً لكِ في ضاحيةِ الوقتْ

لا تأخذُ بنظامِ السّاعاتِ الشمسيّةِ والرمليَه

ولا يبدأُ فيها الزمنُ الحقيقُّي

إلا..

عندما تأخذُ يدُكِ الصغيرةُ قيلولتَها..

داخلَ يدي..

- ١١ -

كلَّ عامٍ.. وأنا متورّطٌ بكِ..

ومُلاحقٌ بتهمةِ حبّكِ..

كما السّماءُ مُتّهمةٌ بالزُّرقهْ

والعصافيرُ متّهمةٌ بالسّفرْ

والشفةُ متّهمةٌ بالاستدارهْ...
كلَّ عامٍ وأنا مضروبٌ بزلازلكْ..
ومبللٌ بأمطاركْ..
ومحفورٌ - كالإناء الصينيّ - بتضاريسِ جسمكْ
كلَّ عامٍ وأنتِ .. لا أدري ماذا أسمّيكِ..
اختاري أنتِ أسماءكِ..
كما تختارُ النقطةُ مكانَها على السطرْ
وكما يختارُ المشطُ مكانهُ في طيّاتِ الشِّعرْ ..
وإلى أن تختاري اسمكِ الجديدْ
اسمحي لي أن أناديَكِ:
« يا حبيبتي»...

***

إلى حبيبتي في رأس السنة...

- ١ -

أنقلُ حبي لك من عام إلى عامْ..

كما ينقل التلميذُ فروضَه المدرسيةَ إلى دفتر جديد

أنقل صوتَك .. ورائحتَك .. ورسائلك..

ورقمَ هاتفك .. وصندوق بريدك..

وأعلقها في خزانةِ العام الجديد..

وأمنحك تذكرةَ إقامةٍ في قلبي..

- ٢ -

إنني أحبُّك..

ولن أتركك وحدك على ورقة ٣١ديسمبر أبداً

سأحملُك على ذراعي..

وأتنقل بك بينَ الفصولِ الأربعةْ..

ففي الشتاءِ سأضع على رأسك قبعة صوف حمراء..

كي لا تبردي..

وفي الخريفِ، سأعطيك معطفَ المطرِ الوحيد الذي أملكه..
كي لا تتبللي..
وفي الربيعِ..
سأتركك تنامين على الحشائشِ الطازجة..
وتتناولين طعامَ الإفطار..
مع الجنادبِ والعصافير..
وفي الصيفِ..
سأشتري لك شبكةَ صيدٍ صغيرة..
لتصطادي المحارْ..
وطيورَ البحر..
والأسماكَ المجهولةَ العناوين

- ٣ -

إنني أحبُّك..
ولا أريد أن أربطَك بذاكرة الأفعال الماضية..
ولا بذاكرةِ القطاراتِ المسافرة..

فأنتِ القطارُ الأخير الذي يسافر ليلاً ونهاراً
فوق شرايين يدي..
أنت قطاري الأخير..
وأنا محطتُك الأخيرهْ..

- ٤ -

إنني أحبك..
ولا أريدُ أن أربطَك بالماءِ .. أو بالريح
أو بالتاريخِ الميلادي أو الهجري..
ولا بحركاتِ المدِّ والجزر..
أو ساعاتِ الخسوفِ والكسوف
لا يهمني ما تقولُه المراصد..
وخطوطُ فناجين القهوة..
فعيناك وحدهما هما النبوءهْ
وهما المسؤولتان عن فرحِ هذا العالم..

- ٥ -

أحبك..

وأحبُّ أن أربطَك بزمني .. وبطقسي..

وأجعلك نجمةً في مداري..

أريد أن تأخذي شكلَ الكلمهْ..

ومساحةَ الورقه..

حتى إذا نشرتُ كتابا .. وقرأه الناس..

عثروا عليكِ ، كالوردةِ في داخله..

وأما أنا..

فأجملُ الشوارعِ والأرصفةِ المغسولةِ والمطر..

على ظهري .. وأبحثُ عنك..

أريد أن تأخذي شكلَ فمي..

حتى إذا تكلمتُ..

وجدك الناسُ تستحمين في صوتي..

أريدك أن تأخذي شكلَ يدي..

حتى إذا وضعتُها على الطاولة..

وجدك الناسَ نائمةً في جوفها..
كفراشةٍ في يدِ طفل..
إنني لا أحترفُ طقوسَ التهنئة..
إنني أحترفُ العشقَ..
أحترفُك..
يتجولُ هو فوقَ جلدي..
وتتجولين أنت تحتَ جلدي..
وأما أنا..
فأحمل الشوارعَ والأرصفةَ المغسولة بالمطر ..
على ظهري .. وأبحث عنك ..

- ٦ -

لماذا تتآمرين عليَّ مع المطر ؟ ما دمت تعرفين..
أن كلَّ تاريخي معك .. مقترنٌ بسقوط المطر..
وأن الحساسيةَ الوحيدةَ التي تصيبني..
عندما أشمُّ رائحة نهديك..

هي حساسيةُ المطر..
لماذا تتآمرين عليَّ ؟ .. ما دمتِ تعرفين..
أن الكتابَ الوحيدَ الذي أقرؤه بعدك..
هو كتابُ المطر..

- ٧ -

إنني أحبُّك..
هذه هي المهنةُ الوحيدةُ التي أتقنها..
ويحسدني عليها أصدقائي وأعدائي..
قبلَك .. كانت الشمسُ، والجبالُ ، والغاباتْ..
في حالةِ بطالهْ..
واللغة بحالةِ بطالهْ .. والعصافير بحالة بطالهْ..
فشكراً لأنك أدخلتني المدرسهْ..
وشكراً .. لأنك علمتني أبجديةَ العشق..
وشكراً .. لأنك قبلت أن تكوني حبيبتي..

***

هل تسمحين لي أن أصطاف ؟

- ١ -

أيتها المرأةُ التي تستوطنُ جهازي العصبي..
هل تسمحين لي أن أصطافَ كما يصطافُ الآخرون ؟
وأتمتعُ بأيامِ الجبل..
كما يتمتعُ الآخرون..
الجبلُ مروحةُ حريرٍ اسبانية
وأنت مرسومةٌ عليها..
وعصافيرُ عينيك..
تأتي أفواجاً أفواجاً من جهةِ البحر..
كما تطيرُ الكلماتُ من أوراقِ دفترٍ أزرق..
هل تسمحين لذاكرتي أن تكسَر حصارَ رائحتك ؟
وتشمَّ رائحةَ الحبق ، والوزَّال ، والزعتر البري
هل تسمحين لي..
أن أجلسَ على الشرفةِ الصيفية دقيقةً واحدة ؟

دون أن يتسلق صوتُك كعريشةٍ زرقاء
على درابزين بيتِنا..
ودونَ أن أحبَّك في قهوتي الصباحية ؟

- ٢ -

لقد اشتغلتُ تسعةَ شهور..
عند نهديْك المتغطرسين..!!
ولي الحقُّ - ككلِّ عمال العالم-
أن أنالَ إجازتي السنوية..
كان أجري قليلاً..
وحظي قليلاً..
وراحتاي مشققتين..
من كثرةِ الشغلِ في مناجم الذهب
حتى في أولِ أيار..
ذهبتُ إلى عملي كبقية الأيام
وحرست نهديْك النائمين..

كبقيةِ الأيام..
حتى القروشَ القليلةَ التي ادخرتها
اشتريتُ بها لهما..
فطائرَ اللوزِ والعسلْ..
ولكن نهديك..
-ككلِّ أولادِ العائلات الإقطاعية-
إعتبرتني مملوكاً لهما..
من عهدِ أول ملكٍ من ملوكِ الأسرة النهدية..
وجلداني تسعين جلدةً على ظهري..
وتسعين جلدةً على صدري..
حتى أسقطتْ دعوايَ عنهما..
وعُدنَ إلى العمل....

- ٣ -

علقتك في خزانةِ ثيابي في بيروت..
وأخذت المفتاحَ معي..

خبأت وجهَك تحتَ قمصاني ومناديلي..
وخرجتُ على أطراف أصابعي..
قبل أن تستيقظي..
واليومَ .. وأنا أتمشى على طرقاتِ الجبل..
رأيتك تتكئين على سنبلةِ قمح..
وتتسابقين مع عصفورٍ صباحي..
وتربطين شعرَك بغمامةٍ برتقالية..
ماذا تفعلين هنا ؟
ومن أعطاك عنواني في الجبلْ ؟
أيتها الواحدةُ التي اصطدمت بعشقي..
فصارتْ امرأة..
واصطدمت بُطقسِ نهديْها الاستوائيين..
فعرفتُ حجمَ رجولتي..
منحتُك البركةَ والتكاثر..
وجعلتك كماءِ البحرِ .. واحدةً .. ومتعددهْ..

ووضعت يدي على بياضِ فخذيك..
فأصبحتِ قبيله..
ماذا تفعلين هنا ؟
حتى الغابة..
تذكرني كيف كنتِ تمشطين شعرك..
فأبكي..
حتى القمة..
تذكرني بارتفاعِ نهديْك عن سطح البحر..
فأدوخ..

- ٤ -

هل بوسعِ رجلٍ يحبك مثلي..
أن يصطافَ اصطيافاً طبيعيّاً ؟
هل بوسعي أن أنفصلَ عن المجموعةِ الشمسية
التي تدور منذ ملايين السنين حولَ عينيك
وأصطافُ في إقليمٍ آخر..

لا يخضع لسلطانِك ؟
هل يمكنني أن أمارس هذا الاختيار الصعب ؟
فأجلس كالمجاذيبِ على كرسي هزاز..
أقرأ القصصَ البوليسية...
وأشربُ المياهَ المعدنية....
وأمتحن ثقافتي بالكلماتِ المتقاطعة..
الاصطيافُ زمن مسطَّح..
وأن مرتبك بزمانك رغمَ كثرة نتوءاته..
والاصطيافُ فراغٌ .. وأنا ممتلئٌ بك..
والاصطيافُ تغيير..
وأنا لا أريدُ أن أغيرَك..
بكنوز الدنيا..
قولي لي..
من هو الأبلَه الذي اخترع كلمةَ الاصطياف ؟
فرماك كخاتمِ الذهبِ على رمالِ بيروت..

وفرض عليَّ الإقامةَ الجبرية
تحتَ شجرةِ النوم..
ربما كان لا يعرفُ أن الشجرة..
تبقى ألفَ سنة على رأسِ الجبل
ولا تصبحُ امرأة..
في حين أنك في اللحظةِ التي
تدخلينَ فيه إقليمِ صدري..
تصبحين شجرهْ..

* * *

تأخذين في حقائبك الوقت وتسافرين..

- ١ -

تجولتُ في شوارع وجهِك..
أيتها المرأةُ التي كانت في سالفِ الزمان حبيبتي
سألتُ عن فندقي القديم..
وعن الكشكِ الذي كنت أشتري منه جرائدي
وأوراقِ اليانصيب التي لا تربح..
لم أجدْ الفندقَ .. ولا الكشك..
وعلمتْ أن الجرائد..
توقفت عن الصدورِ بعدَ رحيلك..
كان واضحاً أن المدينةَ قد انتقلتْ..
والأرصفةُ قد انتقلت..
والشمسَ قد غيرت رقمَ صندوقها البريدي
والنجومَ التي كنّا نستأجرها في موسمِ الصيفْ
أصبحت برسمِ التسليم..

كان واضحاً .. أن الأشجارَ غيرت عناوينَها..
والعصافيرَ أخذت أولادَها..
ومجموعة الأسطواناتِ الكلاسيكية التي تحتفظ بها
وهاجرتْ..
والبحرَ رمى نفسَه في البحرِ .. ومات..

- ٢ -

تجولتُ في أزقةِ صوتِك الممطرة
بحثاً عن مظلةِ تقيني من الماء..
كان في يدي خريطةُ المدينة التي أحببتُك فيها..
وأسماءُ الأنديةِ الليليةِ التي راقصتك فيها..
ولكن شُرطي السير ، سخرَ من بلاهتي
وأخبرني .. أن المدينةَ التي أبحث عنها..
قد ابتلعها البحرُ..
في القرن العاشر قبلَ الميلاد...

- ٣ -

ذهبتُ إلى المحطات التي كنت أستقبلُك فيها..

وإلى المحطاتِ التي كنتُ أودعُك فيها..

سألت عنك في عربة الدرجةِ الأولى..

المخصصةِ للنوم..

فوجدت على باب مقصورتك..

عشرات من سلالِ الأزهار..

ولافتةً مطبوعة بكل اللغات:

« الرجاءُ عدمُ الإزعاج»..

وفهمت أنك مسافرة .. بصحبةِ رجلٍ آخر..

قدم لك البيتَ الشرعي

والجنسَ الشرعي

والموتَ الشرعي..

- ٤ -

أيتها المرأةُ التي كانت في سالفِ الزمان حبيبتي

لماذا تضعين الوقتَ في حقائبك..
وتسافرين .. ؟
لماذا تأخذين معك أسماءَ أيام الأسبوع ؟
وخارطةَ الشهورِ والأعوام..
وكرويةَ الأرض..
إنني لا أستوعبُ خروجَك من دورتي الدموية
كما لا تستوعبُ السمكةُ خروجَها من الماء..
أنت مسافرة في دمي..
وليس من السهلِ أن أستبدلَ دمي بدمٍ آخر..
ففصيلةُ دمي نادرهْ..
كالطيورِ النادرهْ..
والنباتات النادرهْ..
والمخطوطاتِ النادرهْ..
وأنت المرأة الوحيدة..
التي يمكن أن تتبرعَ لي بدمها..

ولكنك دخلتِ عليَّ كسائحه..
وخرجت من عندي كسائحة..
كانت كلماتُك الباردة..
تتطاير كفتافيتِ الورق..
وكانت عواطفُك..
كاللؤلؤِ الصناعي المستوردِ من اليابان..
وكانت بيروت التي اكتشفتها معك..
وأدمنتُها معك..
وعشتُها معك..
وعشتُها بالطولِ والعرضِ .. معك..
ترمي نفسَها من الطابقِ العاشر..
وتنكسر .. ألفَ قطعة..

- ٥ -

توقفي عن النمو في داخلي..
أيتها المرأةُ..

التي تتناسلُ تحتَ جلدي كغابة..
ساعديني..
على كسرِ العاداتِ الصغيرةِ التي كونتها معك..
وعلى اقتلاعِ رائحتك..
من قماشِ الستائر..
ورفوفِ الكتب..
وبللور المزهريات..
ساعديني..
على استعادةِ لغتي..
التي فَصَّلْتُ مفرداتها عليك..
ولم تعدْ صالحةً لسواك من النساء..

- ٦ -

دليني..
على كتابٍ واحدٍ لم يكتبوك فيه..
وعلى عصفورٍ واحد..

لم تعلمُه أمُّه تهجئة اسمك..

وعلى شجرةٍ واحدة..

لا تعتبرُك من بينِ أوراقها..

وعلى جدولٍ واحد..

لم يلحس السكرَ عن أصابع قدميك..

- ٧ -

ماذا فعلتِ بنفسك ؟..

أيتها الملكةُ..

التي كانت تتحكمُ بحركة الريح..

وسقوطِ المطر..

وطولِ سنابل القمح..

وعددِ أزهارِ المارغريت..

أيتها الملكةُ..

التي كان نهداها يصفان الطقس..

ويسيطران..

على حركةِ المدِّ والجزر..
وإليهما .. كانت نتيجةُ المراكب..
لتتزودَ بالعاج .. والنبيذ..
وفاكهةِ الأناناس!!
ماذا فعلتِ بنفسك..
أيتها السيدة التي وقع منها صوتُها على الأرض..
فأصبحَ شجرة..
ووقع ظلُّها على جسدي..
فأصبح نافورةَ ماءْ..
لماذا هاجرتِ من صدري ؟
وصرتِ بلا وطن..
لماذا خرجتِ من زمنِ الشعر ؟
واخترت الزمنَ الضيق..
لماذا كسرتِ زجاجةَ الحبرِ الأخضر..
التي كنت أرسمُك بها..

وصرت امرأهْ..
بالأبيضِ..
والأسودْ..

* * *

الحب في الإقامة الجبرية..

- ١ -

أستأذنُكِ بالانصراف..
فالدمُ الذي كنت أحسب أنه لا يصبحُ ماء..
أصبحَ ماء..
والسماءُ التي كنت أعتقدُ أن زجاجَها الأزرق
غيرَ قابلٍ للكسرِ .. انكسرتْ..
والشمسُ..
التي كنت أعلقُها كالحلقِ الإسباني
في أذنيْك..
وقعت مني على الأرضِ .. وتهشمتْ..
والكلماتُ..
التي كنت أغطيك بها عندما تنامين..
هربتْ كالعصافيرِ الخائفة..
وتركتُك عارية..

- ٢ -

أستأذنُك بالخروجِ .. من هذا المطب الهوائي
بين نهديْك..
فلم تعدْ عندي شهوةٌ لمناقشتك..
أو لمضاجعَتك..
لم أعد متحمساً للهجومِ على أي شيء..
أو الدفاعِ عن أي شيء..
فقد سقطنا في الزمنِ الدائري..
حيثُ المسافةِ بين يديَّ وخاصرتك..
لا تتغير..
وبين أنفي ومساماتِ جلدك..
لا تتغير..
وبين زنزانةِ فخذيْك..
وساحةِ إعدامي..
لا تتغير..

- ٣ -

أستأذنك..

بأخذ إجازةٍ طويلة .. طويلة..

فلقد تعبتُ..

من حالةِ اللاشوق .. واللاحبّ .. التي أنا فيها..

وتعبت من هذه الشقةِ المفروشة..

التي صارت عواطفي مربعةً كجدرانها..

وشهوتي مستطيلةً كدهاليزها..

وطموحي واطئاً كسقفِها..

الفاشيستي

- ٥ -

أريدُ أن أتظاهرَ ضدَّ حبك

وأطلقَ الرصاص..

على قصرِك..

وحرسِك..

وعربتك البرجوازيةِ الخيول..
أريد .. أن أحتج على سلطتِك السرمدية..
وعلى الدستورْ
الذي سميتِ به نفسك..
مليكةً .. طولَ الحياة..
أريد أن أطلقَ الرصاص..
على صورتِك الزيتيهْ..
المعلقةِ في صالةِ العرش..
وعلى كلِّ الشعراء،
والنبلاءْ،
والسفراءْ..
الذين يدفعون لعينيْك الجزيه..
ويسقونَ نهديك..
حليبَ العصافير..

- ٦ -

أريد أن أطلقَ الرصاص..

على ملابسكِ المسرحية..

وعلى عدةِ الشغلِ التي تستعملينها في التشخيص..

على الأخضرِ .. والليلكي..

على الأزرقِ .. والبرتقالي..

على عشراتِ القوارير التي جمعتِ فيها فصائلَ دمي..

على غابةِ الخواتِم والأساور..

التي استعملتها لابتزازي..

على الأحزمةِ الجلديةِ العريضة..

المصنوعةِ من جلدِ التمساح..

والتي استعملتها في جلدي..

على دبابيسِ الشعر..

ومباردِ الأظافر..

والسلاسل المعدنيهْ..

التي لجأتِ إليها..
لأخذ اعترافاتي..

- ٧ -

أريد أن أطلقَ الرصاص..
على صوتكِ المتسلِل عبرَ أسلاكِ الهاتف
فلم أعد مهتماً بهوايةِ جمعِ العصافير..
أريد أن أطلقَ الرصاص..
على حروفِ اسمك..
فلم أعدْ مهتما..
بهوايةِ جمع الأحجارِ النادرهْ..
أريد أن أطلقَ الرصاص..
على كلِّ قصائدي .. التي كتبتُها لك..
وعلى كلِّ الإهداءات الهيستيرية..
التي صدرتْ عني..
في ساعاتِ الحبِّ الشديد..

أو . . .

في ساعاتِ الغباء الشديد..

- ٨ -

أريد أن أذهبَ إلى البحر..

حيث الشواطئ مفتوحةٌ ككتابٍ أزرق

ففمي .. أصبح كغابةِ الفطر..

من قلة الشمس..

وعواطفي أصبحتْ كالمخطوطات القديمة..

من قلةِ الزائرين..

وقلةِ القراءة..

- ٩ -

أريد..

أن أكسّر دائرة الطباشير..

وأنهي هذه الرحلةَ اليوميهْ..

بين شفتكِ العليا .. وشفتِك السفلى

بين نهدك الأيمن . ونهدِك الأيسر..
بين جسدِك البارِد كمدن النحاس
وبينَ جنوني..

- ١٠ -

أريد أن أحتجَّ على شيء ما...
أن أصطدمَ بشيء ما..
أن أنتحرَ من أجل شيء ما..
فلم يعدْ عندي ما أفعله..
سوى أن ألعبَ الورقَ مع ضجري
هو يخسرُ .. وأنا أخسرْ..
هو يضجرُ .. وأنا أضجرْ
هو يخبرني أنك كنتِ حبيبتَه..
وأنا أخبره أنك كنت حبيبتي
هو يعطيني مسدسَه لأنتحر..
وأنا أطلعهُ على مكاتيبك القديمهْ..

فيقتلُ نفسه..

ويقتلني..

- ١١ -

أستأذنُ في أن أقتلَك..

إنني أعرفُ أن كلَّ غمائم السماء..

ستذرفْ دموعَها عليكِ

وكل الحمائمُ ستفرشُ ريشَها الأبيضَ .. تحت رأسِك

وكل شقائق النعمانْ..

ستطلعُ من حقولِ جسدك..

ولكن برغمِ هذا..

سأبقى مصمماً على قتلِك..

لا من أجلي وحدي..

ولكن من أجلِ كل الأسرى .. والجرحى .. ومشوهي الحب..

ومن أجل كل الذين حكمتِهم بالأشغال الشاقة..

المؤبدةْ..

وفرضْتِ عليهم..

أن ينقلوا الرملَ بملاعقِ الشاي..

من نهدكِ الأيمنِ .. إلى نهدِك الأيسر..

من نهدِك الأيسر .. إلى نهدِك الأيمن..

....

....

ولا يزالون يشتغلون..

ولا يزالون يشتغلون..

و ... لا ... ي ... ز ... ا ... ل ... و ... ن

ي ... ش ... ت ... غ ... ل ... و ... ن...

***

أم المعتز..

- ١ -

عندما كانتْ بيروتُ تموتُ بينَ ذِراعَي
كسَمَكَةٍ اختَرَقَها رِمحْ
جَاءَني هاتفٌ مِن دِمَشقَ يقولْ:
«أمُكَ ماتَتْ».

لم أستوعبِ الكلماتِ في البدايَهْ
لم أستوعبْ كيفَ يمكنُ أنْ يموتَ السمَكُ كلُّهُ في وقتٍ ا
واحدْ..

كانتْ هناكَ مدينةٌ حبيبةٌ تموتْ .. اسمُها بيروتْ
وكانتْ هناكَ أمٌّ مُدهِشَةٌ تَموتْ .. اسمُها فائزَة..
وكانَ قَدَري أن أخرُجَ من موتٍ..
لأدخُلَ في موتٍ آخَرْ..
كانَ قَدَري أن أُسافِرَ بينَ مَوتَينْ...

- ٢ -

كلُّ مَدينةٍ عربيّةٍ هي أمّي..
دمشق ، بيروت ، القاهرة ، بغداد ، الخرطوم ،
الدار البيضاء ، بنغازي ، تونس ، عمّان ، الرياض ،
الكويت ، الجزائر ، أبو ظبي وأخواتِها..
هذهِ هيَ شَجَرةُ عائلتي..
كلُّ هذهِ المدائنِ أنزَلَتْني مِنْ رَحْمِها
وأرضَعَتْني من ثَديِها..
وَملأَتْ جيوبي عِنباً ، وتيناً ، وبرقوقا..
كلُّها هَزَّتْ لي نَخلَها .. فأكلْتُ..
وفَتَحَتْ سماواتِها لي .. كرّاسَةً زَرقاءْ..
فَكَتَبْت..
لذلكَ ، لا أدخلُ مدينةً عِربيّةً .. إلا وتُناديني:
« يا وَلَدي»...
لا أطرقُ بابَ مدينةٍ عربية..

إلا و أجدُ سريرَ طفولتي بانتظاري..
لا تنزُفُ مدينةٌ عربيةٌ إلا و أنزفُ معها..
فهلْ كانتْ مصادفةً أن تموتَ بيروتْ..
وتموتُ أمّي في وقتٍ واحدْ ؟..

- ٣ -

يعرفونَها في دمشقَ باسم(أمّ المعتز) .
وبالرغمِ من أنَّ اسمَها غيرُ مذكورٍ في الدليلِ السياحيّ
فهيَ جزءٌ من الفولكلورِ ا لشاميّ .
و أهميّتُها ا لتاريخيّةُ لا تَقِلُّ عن أهميَّةِ (قصرِ العظم)
و (قبرِ صلاحِ الدين) و (مئذنةِ العروس)
ومزارِ (محيي الدين بن عربي)
وعندما تصلُ إلى دمشقَ..
فلا ضرورةَ أنْ تسألَ شرطيَّ السيرِ عن بيتِها..
لأنَّ كلَّ الياسمينِ ا لدمشقيِّ يُهَرهِرُ فوقَ شُرفَتِها ،
وكلُّ ا لفُلِّ ا لبلديِّ يَتَرَبّى في الدلالِ بينَ يديها ..

وكلُّ القططِ ذاتِ الأصلِ التركيِّ ..
تأكلُ .. وتشربُ .. وتدعو ضيوفَها .. وتعقدُ اجتماعاتِها.
في بيتِ أمّي.

- ٤ -

نسيتُ أنْ أقولَ لكمْ ،
إنَّ بيتَ أمّي كانَ معقِلاً للحركةِ الوطنيّةِ في الشّامِ عامَ ١٩٣٥.
وفي باحةِ دارِنا الفسيحةِ كانَ يلتقي قادةُ الحركةِ الوطنيّة السورية بالجماهير.
ومنها كانت تنطلقُ المسيراتُ و التظاهراتُ
ضدَّ الانتدابِ
الفرنسي..
وبعدَ كلِّ اجتماعٍ شعبي،
كانت أمّي تُحصي عددَ ضحاياها من أُصُصِ الزّرعِ التي تحطّمتْ ..

والشّتولِ النادرةِ التي انقصَفتْ .. ْوأعوادِ الزنبقِ التي انكسَرَت..

وعِندما كانت تذهبُ إلى أبي شاكيةً لهُ

خسارَتها الفادحة،

كان يقولُ لها، رحمهُ الله، وهوَ يبتسم:

(سجّلي أزهاركِ في قائمةِ شهداءِ الوطن ...

وعوضكِ

على الله..)

وتخجلُ أمّي من سخريّةِ أبي المبطّنة،

ولكنها في نفسِ الوقت، تشعرُ بهزّةِ عنفوان،

لأنَّ بيتَها صارَ بيتَ الوطنية

..ولأنَّ أزهارَها ماتتْ من أجلِ الحرية...

– ٥ –

أمّي لا تتعاطى العلاقاتِ العامّة،

وليسَ لها صورةٌ و احدةٌ

في أرشيفِ الصحافة.
لا تذهبُ إلى الكوكتيلات
وهي تلفُّ ابتسامتَها بورقةِ
سولوفانْ..
لا تقطَعُ كعكَةَ عيدِ ميلادِها
تحتَ أضواءِ الكاميرات...
لا تشتري ملابسَها من لندن وباريس،
وترسلُ تعميماً
بذلكَ إلى من يهمّهُ الأمر...
لا توزّعُ صورها كطوابعِ البريدِ
على محرّراتِ الصفحاتِ الاجتماعية
ولم يسبقْ لها أن استقبلْتَ
مندوبةً أيّ مجلةٍ نسائية،
وحدّثتها عن حبّها الأوّل .. وموعدِها الأوّل ..
ورجُلِها الأوّل..

فأمّي (دَقّـةٌ قديمة ..) ولا تفهمُ كيفَ يكونُ للمرأةِ حبٌّ،
أوّلٌ .. وثانٍ .. وثالث .. وخامسَ عَشَر ..
أمّي تؤمنُ بربٍّ واحدٍ
..وحبيبٍ واحدٍ
.. وحبٍّ واحدٍ..

- ٦ -

قهوةُ أمّي مشهورة..
فهيَ تطحنُها بمطحنتِها النّحاسيّةِ فنجاناً .. فنجاناً..
وتغليها على نارِ الفحمِ .. ونارِ الصبر...
وتعطّرُها بحبِّ الهالْ..
وترشُّ على وجهِ كلِّ فنجانٍ قطرتينِ من ماءِ الزّهرْ..
لذلكَ تتحوّلُ شرفةُ منزلِنا في الصّيف..
إلى محطّةٍ تستريحُ فيها العصافيرْ..
وتشربُ قهوتَها الصباحيةَ عندنا..
قبلَ أن تذهبَ إلى الشّغْل..

- ٧ -

وزارةُ زراعةٍ كانتْ هذهِ المرأة

ومن كثرةِ الأزهارِ ، والألوانِ ، والروائحِ

التي أحاطت بطفولتي

كنتُ أتصوَّرُ أنَّ أمّي ..

هي موظّفةٌ في قسمِ

العطورِ بالجنّة..

- ٨ -

بموتِ أمّي..

يسقطُ آخرُ قميصِ صوفٍ أغطّي بهِ جسدي

آخرُ قميصِ حنانْ..

آخرُ مظلةِ مَطَر..

وفي الشّتاءِ القادمْ..

ستجدونَني أتجوّلُ في الشوارعِ عارياً..

- ٩ -

كلُّ النساءِ اللواتي عرفتُهُنّ
أحبَبْنَني وهُنَّ صاحياتْ..
وحدَها أمّي..
أحَبَّتْني وهيَ سَكْرَى..
فالحبُّ الحقيقيُّ هوَ أنْ تَسْكَرْ..
ولا تَعرف لماذا تَسكرْ..

- ١٠ -

أمّي متفشّيَةٌ في لُغَتي..
كلّما نسيتُ ورقةً من أوراقي في صحنِ الدّارْ..
رشَّتها أمّي بالماءِ مع بقيّةِ أحواضِ الزّرعْ..
فتحوّلتِ الألِفُ إلى (امرأة..)
والباءُ إلى (بنفسجة)
والدالُ إلى (دالية)
والراء إلى (رمّانة)

والسّينُ إلى (سوسنة) أو (سمكة) أو (سُنونوَّة)
ولهذا يقولونَ عن قصائدي
إنها (مكيَّفَةُ الهواءْ)..
لا مِنَ المكتبة...

- ١١ -

كلما سألوها عن شِعري ، كانتْ تُجيبْ:
« ملائكةُ الأرضِ والسّماءِ .. ترضى عليه».
طبعاً ... أمّي ليستْ ناقدةَ شِعرٍ موضوعيّة..
ولكنّها عاشقة . ولا موضوعيّةً في العشق.
فيا أمّي . يا حبيبَتي . يا فائزة..
قولي للملائكةِ الذينَ كلّفتِهِمْ بحراسَتي
خمسينَ عاماً، أن لا يتركوني..
لأنّي أخافُ أن أنامَ وحدي...

***

